مذكرات جارالله عمر

الفصل الاول

الاهل، القرية، النشأة

أنا من مواليد عام ١٩٤٢ وقد عثرت على هذا التاريخ في مصحف تركه والدي، رحمه الله، في المنزل، كُتب بالسنة الهجرية، وبحسب وصيته تلك، فقد ولدت قبل وفاته بـستة أشهر، حيث أصيب بمرض مفاجئ.

كان والدي معلماً في كتّاب القرية التي ولدت فيها بالإضافة إلى القرية المجاورة اسم قريتنا كُهال، تابعة لناحية النادرة بمحافظة إب. وكان لديه وجاهة اجتماعية هامة، يقدّم الرعاية إلى أناس آخرين في المنطقة، بخاصة ممن تحلّ بهم النكبات أو ممن يريدون أن يتزوجوا وغيرها، حتى انه عندما توفى خلّف وراءه ديوناً كثيرة، على الرغم من رهنه جزءاً من الأراضي الزراعية التي كانت بحوزته، وكانت هذه الديون عبئاً على والدتي التي تكفلت برعايتنا أنا وأختي التي تكبرني بالعمر.

«اريدك ان تكون مثل أبيك»

قبل أن يتوفى والدي، رحمه الله، استدعى والدتي وأسمها سعديه بنت صالح سعد الفقيه وقال لها أنه يشعر أن موته يدنو بسرعة، وطلب منها رعايتي، كنت الابن الوحيد إلى جانب أختي الكبيرة والوحيدة، وقال لها أنه يرجوها ألا تتزوج برجل آخر بعد موته. وقد وفت أمي بذلك، على الرغم من أنّ عمرها لم يكن يتجاوز حينها الـ٢٧ عاماً، وكابدت المشقات في سبيل تنشئتنا بطريقة صحيحة، أختي وأنا، حيث اتجهت إلى احتراف التطريز والخياطة وتربية البقر والدجاج وبيعها لكي تسدد ديون والدي التي تركها لنا بعد وفاته.

خلال السنوات السبع الأولى من حياتي ألحقتني والدتي في كُتّاب القرية وفي نحو عامين أو ثلاثة أكملت القرآن وتعلمت الخط وكافة المستلزمات البسيطة التي يقتضيها مكتب الكتّاب المتواضع. وكانت والدتي تزرع في ذاكرتي ووجداني حقيقة مهمة وتكررها لي كل يوم، وهي ان والدي كان متعلماً، وكان يعلّم الناس القراءة والكتابة، وتحثني على قراءة الأوراق التي خلّفها لنا في المنزل، وتقول لي: "انظر لقد كان خطه جميلاً ، وأريدك أن تكون مثله". كانت تقدمه لي باعتباره رجلاً شجاعاً وتقياً وصادقاً يحترمه الجميع، وحينما كنت أرتكب خطأ ما، تنبهني بأن هذا الأمر لا يناسب اسم والدك، وكان هذا يكفي لردعي عن ارتكاب بعض الأخطاء والتصرفات المشروعة بحكم سنّ الطفولة. حاولت أن أشارك خالي وعمي في مهنة الزراعة إلى

جانب رعي الأبقار والاغنام، لكنني لم أنجح في ذلك، ربما لبنيتي الصغيرة وجهدي القليل، وربما لأنني لم اكن مقبلاً على ذلك بكلّ جوارحي.

حينئذ تعلقت بهاجس الانتقال إلى مكان آخر للدراسة، وكان طموحي أن أصبح قاضياً أو حاكماً، مثل هؤلاء الذين يتعلمون في صنعاء أو ذمار، لكنّ والدتي كانت تعارض ذلك، لأنها لا تريد أن تفارقني، لكن عندما بلغت نحو الرابعة عشر انتقلت إلى قرية الجلوب وهي قرية كبيرة لي أصدقاء فيها، وكان مستوى التعليم فيها أعلى نسبياً مما كان عليه في كتّاب قريتي الصغيرة، وقد قضيت فيها عاماً كاملاً، تعلمت خلاله تجويد القرآن وإتقانه، بالإضافة إلى الخط والحساب وغيره.

أن تكون متعلّماً

عدت إلى القرية، ولاحظت أنّ شباباً من عائلة بيت الطيّب في القرية المجاورة لنا ذهبوا إلى مدينة ذمار للتعلم وعادوا وهم يرتدون الملابس البيضاء النظيفة، والناس يلتفّون من حولهم، حيث لفتوا انتباه الناس بأنهم اصبحوا متعلّمين، وكان من بينهم الاخ عبد الواسع الطيّب، وهو ضابط متقاعد حالياً، فذهبت إليه، وقلت له أنني أريد أن أذهب معك إلى مدينة ذمار للدراسة. رحّب الطيّب بالفكرة، وأخذني معه إلى ذمار، وكان عمري حينها ١٦ عاماً تقريباً، وهناك سكنت في منزله، حيث عدد من الراغبين في الدراسة في المدرسة الشمسية.

والدتي بالطبع لم توافق على ذهابي إلى ذمار إلا على مضض. غير انني أقنعتها بأنه إذا لن تسمح لي بالذهاب بصورة علنية وشرعية فإنني سأفعل ذلك بدون موافقتها فاضطرت للموافقة، وجهزتني بما يلزم من الدقيق والسمن والحطب، وتولّى خالي وأحد أقاربنا نقلي مع بهيمة تحمل مؤونتي إلى ذمار.

المشكلة الكبرى التي واجهتني هي أنني دخلت المدرسة الشمسية في ذمار وأنا كبير في السن، حيث كنت قد تجاوزت السادسة عشر وكانت المناهج في المدرسة كثيفة، في الفقه وعلوم اللغة والمنطق، وكل هذه المتون كان لها ملحقات لا بدّ من حفظها، وقد وجدت نفسي متأخراً عن طلاب يصغرونني سناً، ولكنهم قطعوا شوطاً كبيراً في مضمار هذه المتون أو الملخصات، وانتقلوا إلى قراءة الشروح ولهذا كان عليّ المذاكرة نهاراً وليلاً للحاق بهم.

في العام التالي، أقنعتُ ابن عمي واسمه ناجي عمر بمغادرة القرية والالتحاق بالمدرسة الشمسية في ذمار، وكان والده حينها يرفض ذلك، لكننا تآمرنا عليه، وقمنا بترتيب فراره معي دون علم والده، ووضعناه أمام الأمر الواقع، وهكذا اصبحنا الإثنين في مدينة ذمار. وقد كنا نخرج إلى الجامع قبل صلاة الفجر ولا نغادره إلا لنصف ساعة للفطور ثمّ نعود لتناول الغذاء بعد أن نكون قضينا وقتاً طوال النهار، ولهذا كانت لدينا ساعات قليلة للنوم. وتمكّنّا خلال عامين من حفظ الكثير من المتون، بما فيها «ألفيّة ابن مالك» و«متن الأزهار»، وشرعنا بقراءة الشروح، وكنا ندرس على يد أكثر من عالم وأكثر من فقيه، من بينهم اسماعيل السُوسَوه وزيد الاكوع وحمود الدولة وأحمد سلامة.

استمرينا في الدراسة في المدرسة الشمسية حتى العام ١٩٦٠. نلنا فيها إجازة دراسية، وكنا نقضي نحو اسبوعين في زيارة الاهل ثمّ نعود إلى الدراسة.

صنعاء والمظاهرة الاولى

بداية التفكير بالطلوع إلى صنعاء جاء بسبب الدراسة المتعبة في ذمار، إضافة إلى أننا لم نكن نستلم أي راتب ونعتمد على ما يأتينا من القرية، وكنا نطبخ لأنفسنا، وهذه العملية تأخذ من وقتنا الكثير، على عكس صنعاء، حيث مدرسة العلوم مدرسة رسمية والإمام ينفق عليها من بيت المال وكانت هناك وجبات منتظمة، بالإضافة إلى مرتّب صغير لشراء بعض المستلزمات، كما أنّ الكتاب المدرسي كان متوفراً وبدون عناء.

ذهبنا إلى صنعاء نراجع وزارة المعارف، وكان الوزير حينها القاضي عبدالله الحَجْري رحمه الله، ولم ننجح في مسعانا في المرحلة الأولى، لكننا حصلنا على وعد بأن تكون لنا الأولوية في حالة وجود مقاعد شاغرة. عدنا إلى ذمار وبعد أشهر كانت لنا عودة مجدداً إلى صنعاء، وحينها حصلنا على موافقة بالالتحاق بالمدرسة العلمية وقد شرعنا في الدراسة بمدرسة «دار العلوم»، ولم تكن المناهج مختلفة عما هو موجود في ذمار إلا أنّ الدراسة في ذمار كانت طوعية وتعتمد على الجهد الشخصي، أما في «دار العلوم» فقد كانت الدراسة منظمة ورسمية ولها اوقات محددة، كما أنّ هناك اهتماما بالادب والشعر والتاريخ والسياسة. وأتذكر أنّ [الشاعر] المرحوم عبدالله صالح البردوني كان يقوم بتدريسنا مادة الأدب في تلك المدرسة.

بعد عدة أشهر من دخول «دار العلوم» شاركنا في مظاهرة الطلبة التي قامت قبل الثورة، والمظاهرة في الواقع بدأت كاحتجاج على تصرفات الإدارة في المدرسة الثانوية في صنعاء، وكان يومها يديرها الاستاذ علي الفضيل، حيث تقدّم الطلاب ببعض المطالب، منها تحسين الغذاء وغيرها من القضايا، لكن هذه المطالب كانت مجرد ذريعة أو مظهرا خارجيا للغليان الذي ساد قطاع الطلاب، وكان هناك استعداد نفسي للاحتجاج على النظام السياسي بأكمله.

لذلك ما إن خرج الطلاب إلى الشارع للاحتجاج حتى التحق بهم طلاب مدرسة العلوم والمدرسة المتوسطة وبقية المدارس، وانتقلت المظاهرة بعد ذلك إلى مدينة تعز، حيث قامت مظاهرة في مدرسة الأحمدية، واستمرت طوال اليوم تقريباً، وكانت المظاهرات ترفع شعارات تطالب بسقوط الملكية، وترفع صور جمال عبد الناصر.

ذهب المتظاهرون إلى مبنى الإذاعة، وهناك حصل اشتباك بباب الإذاعة وأصيب الأخ يحيى العماد وشخص آخر لم أعد أتذكره ثمّ عادت المظاهرة في محاولة لاقتحام وزارة المعارف وجرى تهشيم سيارة الوزير، وبعد ذلك ذهب الطلاب إلى الكلية الحربية، وحاولوا توجيه نداء إلى ضباط الجيش ليفتحوا لهم الكلية للدخول، لكن الضباط الذين كانوا يستعدون للقيام بالثورة أغلقوا الأبواب في وجوهنا، فعدنا إلى ميدان التحرير ثمّ إلى باب الروم، وهناك خرج الحرس الملكي وأحاط أفراده بالطلبة المتظاهرين، وتمّت إعادتنا إلى داخل المدينة بعد اعتقال بعض زملائنا واقتيادهم إلى السجون. وأتذكر أنّ من بين زعماء الطلاب يحيي العماد واحمد العماد

(وهو حالياً عضو في الحزب الحاكم) وراجح المالكي وأحمد العبيدي وحسن العربي، بالإضافة إلى مجموعة من الطلاب الأكثر ثقافة والأكثر اهتماماً بالسياسة، وهؤلاء بلا شكّ كانت لهم صلات سياسية واسعة، ولم يكن في ذهنهم موضوع مطالب تحسين الغذاء وغيرها من المطالب وقد حولوا المظاهرة إلى تظاهرة سياسية واضحة.

وذات يوم دخلنا إلى المدرسة فوجدنا الأخ علي صلاح، أحد القادة البارزين، وقد ألقي القبض عليه ويدقون القيد على رجليه، فتأكد لنا حينها أنّ الاعتقالات اتسعت، فانسحبنا أنا وابن عمي ناجي عمر وهربنا سيراً على الأقدام حيث صعدنا على متن سيارة، لكنها تعطلت في الطريق وقعدنا يومين على الطريق، ثمّ واصلنا السير على الأقدام إلى رداع ثمّ البيضاء ومكيراس حيث أمضينا ليلة في إحدى القرى خارج مكيراس في طريقنا إلى عدن.

عدن الانكليز وكل الاجناس

الآن في طريقنا إلى عدن سوف نتحدث عن رحلتنا، رحلة الهروب من صنعاء إلى عدن، بتنا عند السلطان محمد جعبل. وفي الصباح بسبب الخوف، لم ننتظر حتى يخرج السلطان لنودعه ونشكره على استضافتنا عنده، كنا نخشى ان يقبض علينا ويعيدنا إلى الإمام بعد أن أمضينا خمسة أيام في رحلتنا من صنعاء إلى هذه المنطقة – لودر- التي تقع الآن في محافظة أبين. فخرجنا في الصباح بعد الإفطار ومشينا وأخطأنا الطريق إلى عدن ثمّ سألنا المواطنين ودلونا على الطريق في نقطة اسمها إمعين وهي نقطة جمارك أوقفونا في هذه النقطة وحققوا معنا وسألونا إلى أين ذاهبين وهل نحن من الطلبة الهاربين. قلنا لهم نحن طلبة ولكننا لسنا هاربين وهنا خفنا وخشينا أن يكون إيقافنا والتحقيق معنا قد أتى بأمر من السلطان ولكن لم يكن ذلك صحيحاً وإنما كانت لدينا أوهام والسلطان لم يسأل علينا بعد ذلك وبعد ساعتين تمّ إطلاق سراحنا وركبنا سيارة إلى منطقة شُقره قرب زنجبار التي هي الآن عاصمة محافظة أبين. ركوب في السيارة شيء جميل بعد عناء السير على الأقدام.

بتنا في زنجبار وفي اليوم الثاني ركبنا إلى عدن في سيارة أخرى وصلنا نقطة تقع في مدخل عدن هي نقطة دار سعد كان هناك نقطة للشرطة وكان أول مرة نشاهد فيها الجنود الإنكليز، أول مرة نشاهد فيها ناس شقر طوال أوقفونا في النقطة واخذوا التفاصيل عن أسمائنا والذي حققوا معنا هم الشرطة من العرب والإنكليز موجودين وقالوا أن دخول عدن المستعمرة غير مسموح به بالخناجر التي معنا - «توزه» او الجَنْبية - ولازم تطرحوها هنا قلنا لهم أن هذه ملكنا وهي غالية الثمن لها ثمن كبير كيف نطرحها؟ قالوا لازم تطرحوها في الأمانات وسوف نعطيكم استلام وقد طرحناها وغيّرنا ملابسنا أخذنا ملابس أخرى - فوطه و«شميز» - وخلعنا القمصان التي كنا نرتديها وواصلنا إلى عدن بعد ذلك. وعند وصولنا اندهشنا عندما شاهدنا منظر مدينة عدن: مثير منظر عدن يخلب العقول ويختلف عما كان في صنعاء أو ذمار. الطرق منظمة والسيارات تمشي بشكل مستمر والشوارع نظيفة والبشر الذين يمرون في الشوارع مختلطين من كل الأجناس البيض والسود والأوروبي والأثيوبي الخ.

الأسواق والمطاعم والدكاكين عكس ما كان موجود في الشمال، فيها الدكاكين والباعة المتجولين لا توجد ضجة كبيرة والناس نظيفين في ملابسهم وليس هناك على اكتافهم سلاح أو خناجر على خصورهم. ولفت انتباهنا كثيراً من المارة دقونهم محلوقة ورؤوس الأغلبية مكشوفة تبدو عليها حلاقة الشعر الجديدة التي كانوا يسمونها «تالوه» وهذا لم يكن موجوداً في المملكة المتوكلية اليمنية. وعندما حل المساء عشنا منظر المدينة المضاء بالكهرباء. وعلى الرغم أنه كان في صنعاء وذمار كهرباء لكن لم تكن الشوارع مضاءة مثلما هي في عدن. السيارات كثيرة بالقياس إلى صنعاء فالسيارات الصغيرة والمتوسطة غير موجودة أصلاً. من الأشياء التي لفتت انتباهنا أنّ احداً لم يهتمّ بنا عكس المناطق التي مررنا فيها في الشمال أو مناطق المحميات في الجنوب كان يلفت انتباه الناس أثناء مرورنا بملابس طلاب المدارس الدينية. هنا في عدن غيّرنا الملابس وصرنا نمشي في الشارع والاثنين مع بعض ولم يهتم بنا أحد ولم يسألنا أحد من انتم أو من اين أنتم. كانت المدينة مزدحمة بالناس وفيها عشرات البشر من كلّ الأعمار ومن كل الأجناس.

وعندما حلّ المساء احترنا أين ننام. كان عندنا ستة ريالات اعطانا إياها محافظ البيضاء وكانت كثيرة في ذلك الوقت ولكن ما عرفنا كيف نتصرف. اهتدينا إلى مطعم قريب من المكان الذي وصلنا إليه في مدينة كريتر يقع بجانب الجوامع. أكلنا وكان الأكل مختلفاً عن صنعاء. الخبز جديد. اكلنا بشهية الكبد والكلاوي، وجبات لم تكن موجودة في صنعا. دفعنا الحساب ريـال واحد واعادوا لنا الباقي من الريـال طلع قيمة الوجبة شلن ونصف. وكان الريـال قيمته خمسة شلن كما اعتقد.

الضيافة العمالية والمعارضة الشمالية

بعد ذلك دخلنا الجامع وصلّينا وخرجنا الى الشارع ونحن مندهشون بهذا العالم الجديد الذي وصلنا اليه وهنا تناهى الى اذهاننا ان المعارضة لحكم الإمام صحيحة وان اليمن الشمالي متخلف ليس فيه من مظاهر العصر اي شيء. البلد يعيش في القرون الوسطى. بعد ان تعبنا من الحركة والمشي وخفّت الحركة واخذ الناس يقلّوا في الشوارع، وجدنا الناس ينامون في الشارع كون الجو في عدن حاراً. وهنا اخذنا بعض القراطيس واكياس البلاستيك ومدّدناها على الرصيف ونمنا في الشارع بقرب الجامع بعد ان اغلقوا الجامع اثر انتهاء الصلاة. وكان النوم في الشارع غير مألوف لدينا في صنعاء مع ذلك نمنا نوما جميلا وهادئا. وفي صباح اليوم التالي تساءلنا ما الذي سنعمل بعد ان هربنا من الشمال الى هنا ونحن طلاب في المدرسة؟ كيف سيكون مستقبلنا بعيداً من المدرسة ونحن غير متعودين على العمل؟ وفكرنا ان نسأل المهاجرين من الشمال ولديهم دكان يبيعوا فيه اللبن الرائب وقد ذهبنا الى الدكان ووجدنا العمال فيه واستقبلونا استقبالا حافلا ورحبوا بنا ترحيباً كبيرا. وكانت العادة ان يستقبل العمال اي واصل من القرية ويتكفلوا بالاكل والنوم لمدة ايام وهذه بمثابة عادة او عُرف اعتادوا عليه وقضينا اسبوعا او عشرة ايام تقريباً ننتقل في احياء عدن لدى اصدقائنا من العمال. كلٌ يستضيفنا يوما وبعض العمال الذي لا يستطيع استضافتنا يدفع الفلوس نقداً. وجمعنا اضعاف ما كان معنا ولم نصرف ما

نملك وهم لم يكتفوا بالضيافة بل اشتروا لنا الملابس. وبعد ظهر كل يوم كنا نجتمع هم يمضغون القات ونتحدث عن قضايا عامة وكانوا يعتبروننا متعلمين عندنا الاجابة على كل شيء. ولكن عندما عرف بعضهم اننا اتينا هاربين من المظاهرة بدأوا يسألونا عن الاسباب التي دعتنا الى ان نشارك في المظاهرة واضطررنا هنا ان نشرح لهم الاوضاع السياسية وكان فهمنا محدودا لكن كنا نتكلم عن حكم الامام والتخلف الموجود وكيف هي الاوضاع في صنعاء وعدن ونتحدث عنما شاهدناه في عدن وعن المصانع والكهرباء وغيرها.

وهنا حدث الانقسام بين العمال. بعضهم من الكبار والبعض يصغرنا بالعمر. وجدنا ان الاغلبية يستنكرون موقفنا وحديثنا عن الامام باستثناء ثلاثة عمال او اربعة من الشباب والذين كانوا متأثرين بعبد الناصر والثورة في مصر ويؤيدون ما ذهبنا اليه. اما البقية فقد اثنوا على الامام واستنكروا موقفنا ولكن بطريقة ودية وقالوا إن الامام يمثّل الاسلام. فكرنا بعد هذا ان نذهب الى المعارضة - كانت توجد معارضة لحكم الامام موجودة عدن - ونطلب منهم توفير منح دراسية للذهاب للدراسة الى مصر او سوريا. ولكن بعض اصدقائنا من العمال نصحونا بأن لا نذهب لأن الحصول على منح ليس مضمونا وحتى لو حصلنا على منح فلن نستطيع العودة الى المملكة المتوكلية اليمنية والى قرانا.

لم نذهب الى ممثلي المعارضة الشمالية في عدن الذين كانوا على صلة ببعض الحركات السياسية في المدينة وعلى صلة بمصر العربية. اكتفينا بزيارة الشيخ محمد ساع البيحاني وهو شيخ عِلم كبير كان قريبا من المعارضة ويتفهم موقفها لكنه يرى ان الامام افضل من الانجليز. قابلنا البيحاني وحكينا له عن دراستنا وعن هروبنا واكتشفنا انه يعرف بعض المشايخ الذين درّسونا في ذمار. ولما قلنا له انهم يتكلمون عنك كثيراً ارتاح لذلك واعطانا بعض كتبه ونقدنا ثلاثة ريالات فرنسي او "ماريا تريزا" ونصحنا بالعودة الى صنعاء ومواصلة دراسة الفقه وهذا افضل من اي دراسة اخرى. وقال لنا ان الامام لن يتخذ ضدكم اي اجراء لأنه رؤوف وعطوف وانتم طلاب صغار. كان البيحاني يوظف علاقته مع الامام يحيى وابنه من بعده من اجل التوسط للمعارضة عند الامام ليتسامح معهم والامام يتقبل منه هذا. وكان لذلك سابقة: عندما قامت الثورة على الامام يحيى عام ١٩٤٨ وانتصر فيها الامام احمد واعتقل زعماء المعارضة، حكم على بعضهم بالاعدام، عرفنا ان البيحاني تدخل لصالح اطلاق سراح بعض المعارضين من السجون وتخفيف العقوبة على بعضهم الآخر. وقد وارسل للامام قصيدة شعرية بليغة جداً يقول في بعض ابياتها:

أعزّيك يا مولاي في خير ذهبي امام الهدى يحيى عظيم المناقبي
اتيتك من اقصى الجنوب مبايعاً وقد رقصتْ اليك شوقاً ركائبي
وما انا بالآتي لإرجاع هالك ولا ليبقى الحق في يد غاصبي
ولكن تخليص الذين تسابقوا الى الشر جملاً أو لأقوال كاذبي
فإن تعفو كان العفو فضلاً ومتناً يروناك في الاسلام فضلاً ومنئبي

أظن انه القاها في حضرة الامام او ارسلها اليه. وكان البيحاني يتشفع للأدباء والعلماء من الاحرار حتى ان البعض قد وصف ثورة ١٩٤٨ بأنها ثورة العلماء والادباء.

القرية ونصائح الأم

بعد نصيحة البيحاني واصدقائنا الذين استقبلونا في عدن، فضّلنا العودة الى الشمال ولكن عن طريق آخر هو طريق الضالع – قعطبة التي كانت نقطة حدود بين شمال اليمن وجنوبه. كنا نملك مبلغا ماليا محترم حصلنا عليه من الضيافات التي نصرف منها شي وعدنا الى القرية بعد ان اشترينا ملابس وحوائج لم تكن موجودة في الشمال فقد وجدنا في عدن السكّر والصابون والبهارات الخ. وتمكّنا من الحصول على بعض الكتب التي كانت ممنوعة في شمال اليمن والمعارضِة للإمام مثل رواية "واق الواق" للزبيري وهي رواية تشبه رواية دانتي الشهيرة عن المطهر وجهنم والجنة وغيرها وتروي مواجهة بين الامام وجده علي ابن ابي طالب والذي كان الامام ينتسب اليه وكأنه يقول لماذا اليمن متخلفة الخ.؟ وكانت هذه الرواية مدهشة بالنسبة لنا لأنها أول رواية نقرأها ولأنها كانت للزبيري وكنا نقرأ بعض لاشعار التي كان يرسلها من باكستان او القاهرة.

عدنا الى القرية حيث استقبلتنا عائلتنا بفرح ولكنهم كانوا يتوجسون خيفة من الوضع الذي أصبحنا فيه وبدأت امي تسألني لماذا شاركتَ في المظاهرة ضد الامام واهل القرية يقولوا لنا هذا ما كنا نحذركم منه من قبل وانكم ستقعوا في هذا. وامي قالت: كنت اتوقع وانتظر انك ستكمل الدراسة وتتخرج طبيبا وعالِما وتحصل على وظيفة حاكم او كاتب مع الامام. (المدرسة العلمية كانت تخرّج دارسين يتولون المناصب في القضاء والحكم وموظفي الدولة الكبار او كتّاب مع الامام) ولكنك ادخلتنا في مشكلة جديدة ولذلك ما رأيك انك تبقى معي هنا في القرية وتفتح مدرسة هنا للتعليم وتستفيد من دراستك في الفقه وانت الآن ما شاء الله صرت تدرس خمس سنين - وانا قدخطبت وصليت بالناس في مسجد القرية - وتعمل مثل الفقهاء من بيت الطّيب وغيرهم، ولكن [بشرط] تبطل المعارضة للامام لأن المعارضة الإمام حرام لا تجوز لأن الامام يحمي الناس ويأمنهم.

وكان أقاربي من سكان القرية يرددون الكلام ذاته باستثناء شخصين او ثلاثة من الذين هاجروا الى الحبشة وكانوا يتفهموا موقفي ولم يمارسوا علينا الضغط والنقد مثل الآخرين. لم يكن لدي رغبة في البقاء في القرية مدرّساً أو معلماً لأنه كان لدي طموح اكبر من ذلك ولكن كان من الصعب ان اقنع امي واهل القرية بالافكار التي لدي فكنت اقول لهم [عن المظاهرة] ان الطلبة خرجوا من المدرسة جميعاً واحنا انا وابن عمي ناجي عمر خرجنا معاهم.

وفاة الإمام وولاية البدر

واثناء ذلك كنا نتتبع الاخبار عما يجري في صنعاء عن المدرسة والطلبة والمعتقلين. عرفنا ان الاعتقالات توقفت والمدارس اعيد فتحها وقد اغلقت في صنعاء

وفي تعز لأن المظاهرة خرجت في تعز للتضامن مع مظاهرة صنعاء. اعادوا السماح للطلاب بالدراسة واطلقوا الطلاب الصغار الذين لم يكن لهم دور كبير في المظاهرة ولكن النشطاء من الطلاب الكبار اعتقلوا وما زالوا في السجون بل تم توزيعهم على السجون البعيدة في حَجّة وصعده ووشحة. وهذه سجون بعيدة لا يصل اليها الا من يغضب عليهم الامام. ولكن قلنا الآن يمكننا ان نعود، ما في خطر فعدنا الى صنعاء بحذر ودخلنا المدرسة ووجدنا بعض الشباب من الطلاب ومنهم الدكتور عبد القدوس المضواحي والطالب في المدرسة المتوسطة وهو الآن في قيادة التنظيم الوحدي الناصري والدكتور محمد الندبيش.

عدنا الى المدرسة انا وناجي عمر وبلّغنا اننا وصلنا. قبلونا في المدرسة ولم يسألنا احد وكان في المدرسة قسم داخلي والدولة تقدم لنا الاكل والسكن وانتظمنا في الدراسة ولكن اوضاع المدرسة تغيرت بعد المظاهرات لأن الاقسام العليا فيها خلت من الطلاب الكبار المثقفين والمسيّسين والأدباء والشعراء لأنهم اعتقلوا او هربوا الى قراهم. وجدنا المدرسة وقد اصبحت تشبه كتّاب القرية: هناك فقط صغار السن والطلاب العاديين والذين ليس لديهم نبوغ ولا اهتمام بالسياسة اما الطلاب الكبار من نابغين وشعراء كبار ففي السجن او هاربين. لكننا واصلنا الدراسة.

بعد مضي شهر او شهرين على عودتنا - لا أدري كم بالضبط - قامت الثورة في ليل ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢. كنا نائمين قبل ذلك بأسبوع عندما سمعنا نبأ وفاة الامام احمد في تعز ومبايعة ابنه لولي العهد محمد البدر اماما على اليمن. وكان البدر مختلف عن ابيه فهو رجل اصلاحي ومتحضر بعض الشيء ولكنه قال في خطاب العرش انه سوف يسير على نهج والده. طبعاً هذه أغضبت المعارضين ضمنهم يومها ضباط الجيش الذين تدرّبوا على ايدي الخبراء المصريين في الكلية العسكرية وكلية الشرطة، بقيادة ضابط اسمه علي عبد المفتي من منطقة خبان ومحمد مطهر زيد وضباط كثيرين آخرين من ضمنهم عبد الله جزيلان.

وكان ثمة معارضة مدنية. كانت حركة القوميين العرب وحزب البعث واليساريين والماركسيين موجودة في شمال اليمن على شكل خلايا سرية بين المدنيين والطلاب وبعض العسكريين. كل هذه المعارضة بدأت تفكر بالثورة على الامام الجديد لأنهم كانوا يعتبرونه ليس افضل من ابيه لأنه ليس مصادماً وحازماً. وكان هناك خلاف بين البدر وعمه الحسن على الخلافة: من يرث الامام، ولي العهد او شقيق الامام فاخذ ولي العهد البدر الحكم. وانا لم يكن لي صلة بهؤلاء الثوار ولم نكن نعرف انه يوجد تنظيم عسكري على غرار تنظيم الضباط الاحرار في مصر وكانوا هؤلاء الضباط على صلة بجمال عبد الناصر فحضّروا للثورة على عجل.

الانقلاب الجمهوري

كيف سمعت عن الثورة؟ تسرّب خبرها الى البدر ويقال انه حدد موعدان للثورة ولكن بسبب تسرّب الخبر عن مؤامرة للإطاحة به قرر ان يتخذ اجراءات ضد بعض الضباط في الجيش وضد بعض المدنيين ولكن بعض موظفي القصر عرفوا بنوايا الامام الجديد وابلغوا الضباط الاحرار. ويقال ان من بين المبلغين الاستاذ

المرحوم هاشم طالب وكان مثقفا وسياسيا أبلغ الثوار بأمر الاعتقال لذلك سارعوا للقيام بالثورة دون استعداد كامل.

انا سمعت بالثورة من احد زملائي بعد موت الامام احمد ولم اصدقه. اخبرني هذا الزميل، واسمه عبد الكريم السماوي، قال انه بعد اسبوع سوف تقوم ثورة على البدر وانهم كانوا ينوون القيام بالثورة يوم دفن الامام احمد ولكن اجّلوها وسوف يقوم بها الجيش ضد الامام الجديد بعد اسبوع. وقال انه عرف هذا من ابن عمه حمود السماوي الذي كان يعمل في الاذاعة. انا لم اصدق هذا الخبر ولم اهتم به ولم اروه لشخص آخر. ولكن بعد اسبوع بالضبط كنا نائمين في المدرسة العلمية التي تقع في ميدان التحرير وكان اسمه يومها ميدان شرارة، كنا نائمين في المدرسة على مقربة من مقر الامام الجديد في «البشائر» الذي يبعد عنا مسافة ٣٠ متراً فقط. بعد منتصف الليل، حوالي الساعة ثلاثة او بعدها، ونحن نائمين نوماً عميقاً سمعنا هدير محركات الدبابات وبعد لحظات سمعنا قذائف الدبابات والمدفعية تتساقط على قصر الامام وكانت احدى الدبابات واقفة عند باب المدرسة التي نحن فيها. غادرنا فراش النوم جميعاً وتحركنا الى باب المدرسة والى شرفتها قرب السور لنشاهد انطلاق القذائف والقصف العنيف.

قال بعضنا للآخر: هذه ثورة لكن كيف؟ ولمن؟ ولم نكن نعرف ولم يكن هناك امكانية ان نسأل لأن ضباط الجيش محصنّون داخل الدبابات ولا يزال ليل ولم يطلع الفجر بعد. انتابتني مشاعر مختلفة، مشاعر الفرح بالثورة ولكن ايضاً الخوف والتوجس مما يجري ومن عواقبه. داخل حرم المدرسة العلمية او دار العلوم والتي كانت بمثابة جامعة، انقسم الطلاب بين مؤيد ومعارض. ومن ابرز مشاهد تلك الليلة ان احد الطلاب الكبار في السن، وكان على صداقة مع بعض ابناء الامام، انتابته مشاعر الهلع والخوف مما يجري فأصيب بنوبة عصبية قوية وكان يتحرك داخل المدرسة هائما على وجهه، بدون وعي وقد اصيب بالاسهال والتقيء ولم يعد يعي ما يقول وما يفعل. ولاحظنا انه قريب من ان يغمى عليه فساعدناه على العودة الى غرفته والنوم لكنه كان قد اصيب بهذه الحالة السيئة. اذكر اسمه ولكن لأسباب انسانية لا اريد ذكره ولا اعرف ان كان لا يزال على قيد الحياة ام لا. فقد مضت سنوات ولم اره.

استمر القتال والقصف حتى طلوع الصباح وهنا بدأ الطلاب يتحركون ويسألون عما جرى. فتحنا الراديو ووجدنا إذاعة صنعاء تذيع الموسيقى وبعد قليل جاءنا ضباط خرجوا من الدبابات. اتذكر واحد منهم - العميد حسين خيران - وقالوا للطلاب: احنا قمنا بثورة استجابة لرغبة الشعب بما فيه انتم الطلاب الذين خرجتم بالتظاهرات قبل عدة اشهر، ونتوقع منكم ان تؤيدوا الثورة وان تنظموا تظاهرة تأييد لها. واستعدينا للتظاهر، بعد ان رفعوا معنوياتنا وبدأ التأييد للثورة يزداد وفجأة اخذت الاذاعة تذيع نباء الثورة وكان واضحا ان أصوات تلمذيعين جديدة وانهم ليسوا المذيعين الرسميين من الموظفين. بدأ الضباط يذيعون البيانات ويعلنون اسم الجمهورية ولكن بارتباك. كانوا يقولون هنا اذاعة الجمهورية العربية اليمنية، واحياناً الجمهورية اليمنية العربية، ويناشدون الشعب تأييد الثورة، ولم يعرفوا ما الاسم الذي

يطلقونه عليها. وبدأوا يبحثون عن الادباء والشعراء ليأتوا الى الاذاعة ويؤيدوا الثورة وكان من بين الاصوات التي سمعناها صوت القاضي عبد الله الشمامي وهو الذي بايع البدر في الاذاعة قبل ذلك فأتوا به لكي يؤيد الثورة.

شهيد الطلاب الاول

لدى الضباط الاحرار تنظيم خاص معزول عن المدنيين لكن كثيرا من المدنيين كانوا على صلة بهم بدرجات مختلفة. ومن ابرز المدنيين الذين كانوا على علم بتنظيم الضباط الدكتور عبد العزيز المقالح وكان يومها يقدم برامج في الاذاعة، واظن عبد الوهاب جحاف، وهو سفير معروف، اقصد ان عبد العزيز المقالح من المدنيين كان يعرف بالثورة وساهم بالتخطيط لها ومثله عبد السلام صبرة، وهو شخصية معروفة، وشغل منصب رئيس وزراء بعد الثورة، ومحمد عبد الله الفسيل وآخرون كثيرون. وتوجد مجموعة اخرى من تعز منها عبد الغني مطهر وآخرين. وكانت مجموعة من الضباط تريد القيام بالثورة في تعز لكن الامام البدر كان موجوداً في صنعاء فقامت الثورة في صنعاء.

كان ذلك يوما حافلا بالنسبة لنا. في البداية عندما استمعنا في بيان الاذاعة ان الامام قد مات تحت الانقاض، قلنا خلاص الثورة انتصرت، نجحت. ولكن في الساعة العاشرة تقريباً ونحن نشاهد المعركة عند باب القصر من داخل المدرسة لاحظنا ان احدى الدبابات التي حاولت اقتحام القصر تحترق في باب القصر قد صب عليها احد انصار الامام البترول، واسمه عبد الله طميم، فأحترقت الدبابة والضباط الذين داخلها. فخرج الحرس الملكي من القصر وهم يهتفون: عاش الامام، عاش الامام، يحيا الامام، فتراجعت بقية الدبابات الى الوراء قليلاً ولم تحاول اقتحام القصر مرة اخرى. واتضح ان الامام لم يمت بل خرج في الليل تحت القصف الى حجّة وغادر العديد من معاونيه الى المملكة العربية السعودية.

هنا لاحظنا ان الثورة تواجه صعوبات وبدأ الشك ينتابنا وقد انتشرت الاشتباكات بين حرس الامام والثوار في العمارات المجاورة للقصر. وعند الظهر لاحظنا ان رماية دبابات والمدفعية قد خفت يوم ٢٦ سبتمبر ولم نكن ندري ما السبب ولاحظنا ان المعركة بدأت تضعف قدد أعلنت حالة الطوارىء في صنعاء، والشارع خالية من المشاة. واتضح ان الضباط لم يعد لديهم قذائف فاستنجدوا بالعميد عبد الله السلال والذي امر سلاح القصر بصرف القذائف للمدفعية والدبابات الموجودة ولكنها كانت فارغة. وبعدما اصدر السلال الامر باخراج الذخائر وتصفّية مقاومة الحرس. بعد الظهر ذلك اليوم او اليوم الثاني قمنا مع كثير من الناس بتظاهرة تأييد للثورة ومن الاشياء التي اتذكرها ان احد الطلاب من زملائنا في المدرسة اصيب برصاصة ونحن معه واسمه مفضل، اصيب بنزيف ولم نعرف كيف نتصرف فنزف حتى مات امام اعيننا ولم نستطع اسعافه او ان نعمل له أي شيء. ظلت تلك الحادثة تؤلمني حتى الآن: ما كان بالامكان نقله الى المستشفى فمات وهو ينزف.

ومن الاشياء التي اتذكرها يومها ان الاذاعة لعبت دورا كبيرا في شد أزر الناس ورفع معنوياتهم وحثهم على الالتفاف حول الثورة. وكان خريجو المدرسة العلمية وطلابها في مقدمة الذين تقاطروا الى الاذاعة لإلقاء كلماتهم وقصائدهم المنددة بالنظام الامامي والمرحبة بقيام الثورة. وقد القى الشاعر محمد الشرقي قصيدة طويلة في هذا الموضوع ثم جاء الدور على الشاعر عبد الله البردوني الذي القى قصيدة جميلة كان مطلعها:

أفقنا على فجرِ يومٍ صبيّ فيا ضحوات المُنى أطربي

هنا دخلت الثورة او اليمن في منعطف جديد. قام الثوار بعمل عسكري شجاع ولكنه مغامر لأن كثيرا من المناطق والقبائل لم تكن معهم والوعي السياسي كان بسيطا محدودا خصوصاً في صنعاء وما حولها والتنظيمات الحزبية ضعيفة. والاهم ان بعض وحدات الجيش لم تؤيد الثورة وبالذات وحدات المشاة ولكنها التزمت ثكناتها ولم تتدخل لأنها لم تتلقى اوامر ولأنها كانتتشاهد الدبابات والمدفعية لأول مرة. طبعاً لو تحركت هذه الوحدات لكانت هزمت الثوار الذين لم يزيد عددهم عن ١٠٠ ضابط ولم يكن معهم عدد كبير من الجنود في حينه.

الى الريف لتعبئة الفلاحين

قلنا ان الثورة غيرت مجرى الاحداث ولكنها غيرت مجرى حياتي قبل اي شيء آخر. نتج عنها اغلاق المدرسة العلمية التي كنا ندرس فيها علىاعتبارها موالية للامام وانتقلنا الى مدرسة بجانبها اسمها مدرسة الوحدة الإعدادية. بعد وصول القوات المصرية لدعم الثورة ارسلت مصر مئات المدرسين للمواد العلمية في الرياضيات والفيزياء والكيمياء. فدخلت تلك المدرسة التي سمّيت مدرسة الوحدة انا وزميلي ناجي عمر وبعض الزملاء الآخرين. وبعد سنة حصلنا على الشهادة الاعدادية وكنا نخرج للريف اثناء دراستنا لنرشد الفلاحين انا وزميلي وطلاب آخرون نعبئهم بمباديء الثورة الجديدة.

وقد ذهبنا الى الارياف ولدينا يقين بأن الثورة قد انتصرت، خصوصاً ان قيادة الثورة كانت تؤكد كل يوم ان البدر، الامام الجديد، قُتِل تحت الانقاض وان كل شيء قد حسم. لكن منذ الاسبوع الثان، بدأت بعض الاذاعات العربية تؤكد ان البدر لا يزال حياً، خصوصاً اذاعة المملكة العربية السعودية والأردن وايران وبعض الاذاعات الغربية، وابرزها هيئة الاذاعة البريطانية.اخذت هذه الاخبار تحدث ارتباكاً بين الناس وتعيد فرز المجتمع من جديد. الجو في المناطق التي ذهبنا اليها، في مديرية دَمْت بمحافظة إبّ مثلا، لم يكن معادياً للثورة، لكنه لم يكن متحمساً لها بالمطلق، لقد كان الارباك والمفاجأة هما السائد حينها، وبدأ الناس يتساءلون عما حدث وما الذي يمكن ان يحدث؟

وعندما عدنا الى صنعاء كانت الحرب مع الملكيين قد بدأت، وبدأ التمرد على الثورة في منطقة مأرب في الشرق، ثم انتشرت الى خولان والمناطق المجاورة، وكانت طلائع القوات المصرية قد وصلت الى الحُدَيدة ثم الى صنعاء. وفي غضون

ذلك اغلقت المدرسة العلمية ورحل عنها الطلاب جميعاً، وقدم عدد كبير من الاساتذة المصريين وفتحوا مدرسة اعدادية لطلاب المدرسة العلمية على اساس تعليم العلوم الحديثة، مثل الرياضيات والعلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغة العربية. وفي غضون عام حصلنا على شهادة الاعدادية بعد ان امتحننا مدرسون مصريون واظهرنا تفوقاً في ذلك.